غدا يدخل الرئيس مرسى عش الدبابير !

بقلم : رائف محمد الويشى

30 يونيه 2012

هناك صفقة واضحة المعالم في إدخال الإخوان إلى كرسي الرئاسة ، أظن أن هذا التحليل الذي قلناه في مقالنا السابق قبل جولة الإعادة الثانية بين مرسى وشفيق لم يعد خافيا على المراقبين ..

علينا أن ننظر خلفنا إلى الرؤساء الأربعة الذين حكموا مصر في العقود الستة الماضية ، فربما ترشدنا أحداث تلك العقود إلى المستقبل الغامض الذي نقبل عليه ، وربما الأصح أن نقول أنه هو الذي يقبل علينا ، هناك في هذا الشأن ثلاث ملاحظات:

الملاحظة الأولى : اثنان من هؤلاء الرؤساء الأربعة قد تم اعتقالهما ، الأول مات وهو تحت الإقامة الجبرية ، والثاني يعيش أيامه الأخيرة الآن داخل محبسه شديد الحراسة ..

الملاحظة الثانية : اثنان من هؤلاء الرؤساء الأربعة قد تم تصفيتهما ، الأول خلسة وبهدوء ومن وراء الستار ، والثاني على الملأ وأمام البلايين من البشر وبصورة بشعة ..

الملاحظة الثالثة : واحد من هؤلاء الرؤساء الأربعة جاء ليحكم مصر من خلال صفقة قد تم الإعداد لها ، وأزعم هنا أنها كانت صفقة أقل تعقيدا من تلك التي عقدها الإخوان لإحضار مرسى ..

يقودنا هذا التحليل إلى التوقف أمام الملاحظة الثالثة ، وسيكون ذلك محور مقالنا اليوم ، فالعامل المشترك بينها وبين ما يجرى الآن في مصر يستلزم منا كباحثين أن نلقى الضوء أكثر ، كي نستخرج نقاط الخلاف والاتفاق بين الصفقتين:

* **النقطة الأولى :** السادات أبرم بنفسه صفقة وصوله إلى الحكم (أي أنه كان فاعلا) في عام 1970 مع طرفيْن خارجييْن ، وهما أمريكا والعروش العربية ، وقد استلزم ذلك إعدادا دقيقا وممنهجا قامت به أمريكا بغرض تنصيبه كنائب ، وأغلب الظن أن دولة خليجية كبرى قد شاركت في هذا الإعداد ، بإقناع عبد الناصر بتعيين السادات كنائب بحجة الضغط على السوفييت لتسريع عملية التسليح ، وفى ذات الوقت الحصول من الأمريكان على مكاسب (صدر قرار تعيينه في 20 ديسمبر 1969)..

لقد نقلت تلك الدولة الخليجية ولعدة أشهر في عام 1969 معلومات إستراتيجية هامة على المستويين السياسي والعسكري من داخل المطبخ الأمريكي إلى عبد الناصر بغرض تعزيز ثقته بها ، وكان ذلك باتفاق مسبق مع الأمريكان ، كان من ذلك ما نقلته في صيف العام المذكور إلى مصر بأن نيكسون سيمد إسرائيل قريبا بصفقة ضخمة من طائرات الفانتوم لتهديد العمق المصري ، وبالغت في دقتها بتحديد أعداد تلك الطائرات ، وهو ما حدث بالفعل في 9 سبتمبر 69 ، وأعقب ذلك ضربات مؤلمة للعمق المصري طوال هذا الشهر ، ثم وصلت إلى قمتها في فجر 7 يناير عام 70 بضرب ثلاث مناطق عسكرية لم يصل إليها طيران العدو من قبل وهى : ثكنات عسكرية بالمعادى ، مطار غرب القاهرة العسكري ، مناطق التدريب في دهشور ..

يعزز هذا الظن أن عبد الناصر في زيارته السرية إلى موسكو في 22 يناير 1970 هدد السوفييت وبغضب شديد بأنه إذا عاد إلى القاهرة خالي اليدين ، فسوف يسلم الحكم إلى السادات ليتفاهم مع الأمريكيين ..

اجتمع المكتب السياسي في الكرملين على الفور ووافق على أكبر صفقة عسكرية إستراتجية في تاريخ مصر ، ووصل الأمر بالسوفييت إلى نقل 3 ألوية من مقاتلات ميج 21 المعدلة (95 طائرة) بكامل طياريها السوفييت إلى مصر لحماية عمقها ، وكذلك نقل فرقة دفاع جوى كاملة بأطقمها من القوات السوفيتية إلى مصر فى ابريل 1970 (الفرقة 28 دفاع جوى من طراز

سام 3) ، مع شحن كميات ضخمة من الإمدادات العسكرية الأخرى إلى مصر لتدعيم موقفها الدفاعي (طائرات – صواريخ دفاع جوى – رادارات حديثة) ، واستدعاء أغلب قوات الدفاع الجوى المصرى إلى موسكو لتدريبهم بصورة مكثفة على الصواريخ الجديدة ..

كان من الطبيعي أن يزول السادات بزوال الأسباب التي جاءت به ، وإلا أغضب بقاؤه السوفييت ، لهذا نرى أن عبد الناصر عاد من رحلته العلاجية في موسكو في يوليو 1970 وهو ينوى التخلص منه ، في مطار القاهرة تلقى السادات وجبة مركزة من الإهانات والشتائم من عبد الناصر وأمام جميع القيادات بأحجامها المختلفة بسبب ما قام به في غيابه في موسكو ، تقصير السادات – خاصة ما حدث بخصوص اللواء الموحى - كان لا يبرر حجم تلك الإهانات ، لكن ما حدث في مطار القاهرة كان تمهيدا للتخلص به ، قرأ السادات ذلك جيدا ، فادعى الممثل البارع أزمة قلبية حادة في مطار القاهرة استغرقت عدة أشهر للتعافي منها ، ثم تخلص من عبد الناصر بعد شفائه المزعوم من خلال حبة القهوة الأمريكية التي أسرعت من نبض قلب عبد الناصر ..

الإخوان في حالة ثورة 25 يناير لم يكونوا عنصرا فاعلا ، بل مفعولا به ، صحيح أن أطراف الاتفاق هم ثلاثة – كحالة السادات – لكن جنرالات المجلس العسكري هم من أبرم الصفقة مع نفس الطرفيْن السابقين ، أي أمريكا والعروش العربية ..

* **النقطة الثانية :** المخابرات المصرية لم تكن راضية على أنور السادات عند وصوله إلى الحكم ، فقد قام في خمس سنوات لاحقة من توليه منصبه الرئاسي بتحركات غامضة داخل وخارج مصر ، وجاءت العملية الكبرى للمخابرات المصرية في السفارة الأمريكية في القاهرة (نقصد العملية عصفور) لتعزز تخوف وتحفظ المخابرات المصرية عليه ، لكنها آثرت الصمت بسبب المذبحة التي كانت فيها مع الجيش والشعب منذ يونيه 1967 م ..

الجيش في حالة ثورة 25 يناير ليس مذبوحا ، بل مسيطرا وهادئ الأعصاب تماما في الغرف المكيفة ، وجنوده في الميادين ينتشرون ، لهذا فهو – أي الجيش - يلعب الدور الرئيسي في تحريك الأحداث داخل مصر ، لتخدم في النهاية هدفا معينا هو يريده ..

* **النقطة الثالثة :** السادات – بحكم تكوينه الإرهابي وخبرته المخابراتية المعقدة – كان يعرف البنية التحتية لكل من الجيش والمخابرات ، وقد مشى على حد السيف الساخن بينهما أحيانا والمتفجر أحيانا أخرى ، وتمسكن حتى تمكن ، ورغم تلك المسكنة ، فإن نظام حكمه في السنوات الثلاث الأولى شهد ثلاث محاولات انقلابية معروفة ، تزعمت المخابرات واحدة منها وساهمت في أخرى بنصيب وافر ، عدا المحاولات الغير معروفة إلا للمخابرات المصرية ..

خبرة الإخوان متواضعة في كل من الجيش والمخابرات ، وكما أن الإخوان مصابون بالفئوية الحادة ، بمعنى أنهم تاريخيا لا يثقون إلا في الإخوانى الذي يحمل نفس أفكارهم ، فإن كلا من الجيش والمخابرات في مصر مصابان بنفس المرض ، وبصورة ربما أكثر في تركيزها ، أي أنهما لا يثقان إلا في أمثالهما من أصحاب الأحذية الثقيلة ..

ربما من هذه النقطة ستخرج بعض المشاكل التي ستنغص حياة الرئيس محمد مرسى ، فهو سيكون مراقبا جيدا في كل الأطواق الأمنية المضروبة حوله ، بمعنى أن روحه ستكون في أيدي الجيش والمخابرات ، وقد يفسر ذلك ما حدث فى ميدان التحرير أمس عندما ذهب إليه لحلف اليمين وخلع - تقريبا - سترته ، وأزاح بعض حرسه من أمامه ، ليُبين عدم خوفه مما يدور فى عقل المجلس العسكري ..

* **النقطة الرابعة :** كانت مصر واحدة وموحدة عندما تولى السادات إدارتها في عام 1970 ، صحيح أنها كانت ضحية ، لكن مشاكلها كانت بريئة وواضحة وبسيطة ، كبساطة محدودية شعبها صاحب الثلاثين مليون نسمة ، كانت تحلم فقط بالحصول على حقوقها المغتصبة من عدوان عليها ، كانت قوة الدفع التي تمتع بها الاقتصاد المصري في عقد سابق على النكسة تعطى الأمل بمعاودة العمل وإطعام الجميع ، وساهمت حالة الرضا والتكاتف في قلوب المواطنين في تلخيص الحلم ليكون فقط في تحرير الأرض ..

مصر في عام 2012 عندما يتولى الرئيس الجديد محمد مرسى غدا إدارتها ليست واحدة كما كانت ، وعلينا أن نعترف بذلك

حتى نجد الدواء الجيد والمناسب للخلاص من مرضها بعد تشخيصه جيدا ، مصر الضحية لم تعد صاحبة المشاكل البسيطة البريئة الواضحة ..

مصر الجيش ليست هي نفسها مصر المجلس العسكري ، ففساد طبقة الجنرالات في عهد عبد الحكيم عامر تضاعف الآن عدة مرات وحلق في السماء عاليا ، جنرالات عبد الحكيم عامر كانوا يبذلون وقتا في إجراء الاتصالات كي يتم إعفاؤهم من الجمارك عند قدومهم من الخارج وهم يحملون عدة حقائب ، جنرالات المجلس العسكري لا ينظرون الآن إلى تلك التفاهات ، فهم يتحكمون في عدة مليارات وتقاسموها مع مبارك طوال فترة حكمه ليضمن شرّهم ، وسيزداد تحكمهم في تلك المليارات في الفترة القادمة ، وإذا شعروا بالخطر في هذه النقطة سيقلبون الطاولة على شعب مصر ..

مصر الاقتصاد في عام 1970 ليست هي نفسها في عام 2012 .. كانت علينا ديون في سبتمبر 1970 تبلغ نصف مليار دولار فقط ، وكان أغلبها ديون عسكرية مؤجلة لحين الانتصار ، الإنتاج الداخلي في الزراعة والصناعة كان يضمن إطعام وتشغيل الجميع ، القطاع العام الذي نمى من قوت المصريين كان يقف كالأخ الأكبر يسد رمق إخوته الصغار ..

أما الآن ، فالديون على مصر قد اقتربت من مائة مليار دولار ، وربما تعدى ذلك السقف قليلا ليتساوى بالتمام والكمال مع حجم الناتج القومي ، وحجم دَيْنِ بهذا الكم كفيل بإلقاء اليأس في قلوب العاشقين لمصر ، فكلاب مبارك – الذين كانوا يمرحون طولا وعرضا تحت سمع وبصر الجنرالات - دمروا الزراعة ، ونستورد بسبب ما فعلوا أغلب طعامنا الآن أو نستجديه من الخارج بالدفع من سيادتنا وكرامتنا ، ونفس الكلاب بحماية ومشاركة نفس الجنرالات طعنوا القطاع العام في سويداء القلب وباعوه بثمن بخس إلى أنفسهم ، ونفس الكلاب مع نفس الجنرالات نهبوا وتقاسموا أراضى مصر فيما بينهم ..

مصر المجتمع في عام 1970 ليست هي نفسها في عام 2012 ، توسعت وتفسحت مشاكلها ، وتحولت من صبية كان أسمها بهية إلى سيدة عجوز مريضة وفقيرة ..
- تخبرنا حالات الطلاق بنهاية حكم عبد الناصر أنها كانت بحدود 2 % ، وصلت في بداية حكم المخلوع إلى 4 % ، لكنها قفزت في نهايته إلى 47 % ، وربما تجاوزت ذلك في عام ونصف أعقبه ، بسبب الطعنات التجريفية المتعمدة التي تلقتها مصر ممن يفترض فيهم حمايتها ..
- مصر لم تكن تعرف من قبل موجات الفرار والهروب الجماعي منها ، أما الآن فقوارب الموت فى المتوسط تدل على عمق تلك الكارثة ..
- مصر الداخل في عام 1970 كانت يدا واحدة ، أقباطها مع مسلميها ، تفرق الآن أقباطها وتحالف بعضهم مع الخارج وتكاتف بعضهم داخليا بغريزة الخوف الطبيعية ، ومسلموها انقسموا بين السلفي والإخوان وكفر بعضهم بعضا على الأصوات في الجولات الانتخابية في العام الحالي ، وبين المسلمين والمسيحيين تكاثر الليبراليون واليساريون ..

هل كان فى الإمكان أفضل مما كان ؟
عندما تقدم المرشحون الرئاسيون إلى الشعب في الجولة الأولى ، كانت الفوارق بينهم متقاربة ، كلهم تشابهوا تقريبا في كل المجالات إلا واحدة ، هي السياسة الخارجية ..

السياسة الخارجية لمصر كانت وستبقى هي ما يشغل الجيش والعروش الخليجية وأمريكا ، سُجن مبارك أم لا ، أعدم المتورطون من ضباط الشرطة أم لا ، دفع الحكم الجديد تعويضا لعائلات الشهداء والجرحى أم لا ، هذه كلها قشور لا تحرك ساكنا لتلك الأطراف الثلاثة ، وسوف يتم حلها في أقرب وقت ، لأنها ليست هي النقطة الإرتكازية ..
لهذا السبب كان لابد أن يذهب الصباحى وأبو الفتوح ويبقى شفيق مع مرسى ، فالتشابه والتطابق بين الأخيريْن في السياسة الخارجية يكاد أن يكون واحدا إلى حد بعيد ، وهو متمثل في الحفاظ على الاتفاقيات التي تم توقيعها ..

مصر بحالاتها الاقتصادية والتسليحية والاجتماعية التي ذكرناها اختصارا ليست مهيأة – ولو بعد جيل من الآن أو جيلَيْن - للسياسة التي يتبناها أبو الفتوح أو حمدين الصباحى ، وإلا لأصبحنا كرجل يضرب رأسه في جبل ..

لابد أن نكون واضحين وضوح الشمس في رابعة النهار في تلك النقطة ، لابد أن نستدير للخراب الذي حل بنا قبل أي مواجهة

خارجية لنعرف حجمه وتفاصيله ونعمل على إصلاحه ، وفى أسرع وقت ممكن ، وأغلب الظن أن طرفيْن من هؤلاء الأطراف الثلاثة لا يريدان إصلاحا لهذا الخراب ، كي تبقى سياسة مصر الخارجية مشلولة لانشغالها بالموقف المنهار داخليا ..

إن فرض السلام المهين على مصر لا يأتي إلا بتركيعها اقتصاديا ، وتلك هي فقط الفلسفة التي بها زرعت أمريكا أنور السادات ليسيطر على الحكم بالصورة التي ذكرناها اختصارا ، الراسخون في الذاكرة يعرفون جيدا الفساد الذي ترعرع واستوي على سوقه في عهده ، ولو مد الله في عمره لكان فعل ما فعله مبارك وربما أكثر ، ولو لم يفعل لأطاحت به أمريكا وجاءت بمن يُركع مصر اقتصاديا ، لإجبارها على تجرع السلام المسموم ..

أما عن الحواضر ، فمصر بحالتها الثورية المحتشدة في الميادين لم تكن لتقبل رجلا كان جنرالا في عهد مبارك ، واشترك في إفقار مصر ونهب ثروتها ، وساهم كرئيس للوزراء في أيام مبارك الأخيرة في سفك الدماء المصرية في الميادين ، وإلا فليأذن النافخون في النار بثورة ثانية تخرج من قيدها وتعبر الحدود شرقا ..

الملفت للنظر أن الفريق شفيق كان يواصل اندفاعه بتصريحات مستفزه ، ولا أستبعد أن يكون المجلس العسكري قد دفعه إلى ذلك ، كمحاولة منهم على تركيز الأصوات في النهاية لمحمد مرسى ، كي يبدو الاحتفال بفوز مرسى في النهاية مدويا وملبيا لرغبة شعبية ملحة ، أعتقد أن الفريق شفيق يشعر الآن بأنه قد غُدر به ، فالثابت أنه كان قبل ساعة من إعلان نتيجة الجولة الثانية في طريقه لمقر حملته للاحتفال بفوزه ، ثم عاد مسرعا إلى منزله عندما أخبروه في سيارته بالقرار ، قال حينها " لقد ذبحوني " وأدرك عمق السكين المسدد من زملائه ، ثم غادر مصر بعد يومين صامتا مع أولاده في ليل دامس إلى الإمارات ، في نسخة كربونية فعلها قبله بأسابيع الجنرال عمر سليمان ، صاحب الصندوق الأسود ..

لقد كان الفارق بنسبة 1 % تقريبا بين الفريق أحمد شفيق وبين د. محمد مرسى ، وكانت هذه رسالة أخرى من المجلس العسكري جرى إعدادها بدقة في اللجان الانتخابية ، لإفهام الرئيس الجديد بأنه لم يفز فوزا ساحقا ..

رغم إختلافى الإداري مع الإخوان ، إلا أنني سجدت لله شكرا عندما أعلن فوز د. محمد مرسى ، أعلم أن حجم الكارثة سيجعلهم يتخلصون مما شابهم من مساوئ عرفها عنهم الصغير قبل الكبير ، فالمنطق يقول أنهم لم يعودوا في حاجة إلى التعامل الفئوي أو الإنتهازى ، لقد أخذوا الجمل المريض – برغبتهم - بما حمل من حقائب فارغة وأثقال نابغة .. في الوقت ذاته ، فإن مصر تنتظر منهم إظهار براعتهم في فن الصفقات ، وهو فن له عندهم علماؤه وطباخوه ، ليصب ذلك في النهاية لصالح هذا المواطن البسيط في شوارع مصر الفقيرة ..

في نهاية مقالي أنصح الرئيس الجديد بأن يتذكر دائما قول الفريق ضاحى خلفان مدير شرطة دبي لصحيفة الوطن الكويتية في 21 مارس الماضي : " المتباهون الآن بالربيع العربي وبالإخوان سيندمون غدا " ..كما أوجه له نصيحة أخرى أخبره فيها بأن حد السيف الذين سيسير عليه بدء من غد سيكون أكثر سخونة وأكثر تفخيخا مما كان عليه في عام 1970 ، ومن كل الأطراف الثلاثة السابقة الذكر ، فكان الله في عونه ، وعون مصر ..

رائف محمد الويشى
سانت لويس – ميزورى – أمريكا
elwisheer@yahoo.com
تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :
www.thowarmisr.com